شخصية الفاتح

محمد الثانى من أقوى الشخصيات الممتازة التى تولت السلطنة العثمانية وأعظم معاصريه على وجه الإطلاق ومن أكبر شخصيات العالم.

تولى الإشراف على أمور الدولة العثمانية وهو أعز ما يكون نضارة فى الشباب وقوة فى الجسم ، تولى الملك وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، ولد فى ٢٦ رجب سنة ٨٣٣ هجرية ، ٢٠ إبريل سنة ١٤٢٩ ميلادية ، ولا ريب أن هذه سن مبكرة لمن يتولى مهام الحكم الجسيمة لدولة عظيمة ناشئة كالدولة العثمانية . ولكن والده السلطان مراد الثانى كان قد اهتم بتربيته اهتماماً خاصاً ، وأحسن اختيار من يقوم على تعليمه وتدريبه .

لقد تدرب محمد على أمور الملك عملياً قبل وفاة والده ، فلقد تولى أمور السلطنة فعلا مرتين حينما آثر السلطان مراد الثانى اعتزال الملك والانصراف إلى حياة الراحة والاخلاد إلى السكينة . عرف محمد كيف يتحمل المسئولية فى حياة أبيه ، وعرف كيف يواجه مشاكل الدولة والحكومة ، وخبر الرجال وكشف مواطن الضعف فى نفسه وعمل على معالجتها ، ودرس نظم الدولة الداخلية وقدر مهمتها الخارجية ومشاكلها

الدولية . ومما يروى أثناء توليه السلطنة فى حياة أبيه أنه باشر أعمال الملك بنشاط وحماس ، ولم يلتفت إلى آراء ذوى الخبرة ممن حوله من وزراء أبيه مما اضطرهم إلى شكواه إلى والده فلقد بعث خليل باشا الصدر الأعظم إلى مراد بخطاب يقول فيه : « إن هذا السلطان لازال صغيراً فى السن وليس لديه اضطلاع بأمور الملك ، وليست له التجربة الكافية وخاصة فى الأمور الحربية ، ومما يزيد الحالة سوءاً أنه لا يستمع لغير نفسه ويرفض تقبل النصائح التى تسدى له بدرجة أنك إذا لم ترجع إلى العرش سيصبح شعبنا فى خطر عظيم » .

كان هذا درساً للسلطان الصغير لم ينسه طول حياته ، فلقد عرف كيف يستمع لنصيحة والده ، ويقدر من حوله وكيف يدرس الأمور بنفسه ، وكيف يحسن سياستها ، وينحنى أمام العاصفة إلى أن تنتهى ، عرف محمد كيف يضبط نفسه ، وكيف يدرس خدامه وجنوده ، ولا سيما الانكشاريه فخبر اقتدارهم على الخير والشر ، فاهتم بمسائل النظام أعظم اهتمام .

وجد محمد الثانى أباً له من أعظم سلاطين آل عثمان ، وكانت أمه مسيحية كما تقص رواية حياته ، فامتزجت فيه أحسن صفات الشرق والغرب فى ذلك الوقت ، وإذا كان للوراثة والبيئة أثرهم فى حياة

الإنسان وصفاته وأخلاقه ، فلقد ورث عن أبيه الجلد والشجاعة وشدة المراس والصبر على المكاره وعدم اليأس ، كما أخذ عنه المعرفة بأمور الحرب والإتقان فى وضع الخطط الحربية وحصار المدن وقيادة العمليات الحربية .

كان السلطان محمد الثانى قمحى اللون متوسط الطول متين العضلات كبير الثقة بنفسه ذا بصر ثاقب وذكاء حاد ومقدرة على تحمل المشاق ، يحسن ركوب الخيل واستعمال السلاح . كان محباً للتفوق ميالا للسيطرة طموحاً سريعاً فى فهم المواقف ، يحسن معالجة الأمور ، كبير اليقظة ، يحيط بتفاصيل الأشياء ويدرك بسرعة أهم مواضعها .

علمه أبوه فأحسن تعليمه فنشأ ذلك الرجل مثقفاً ثقافة حقيقية كأحسن ما تكون ثقافة إنسانية شرقية فى عصره ، فلقد كان ملماً بجملة لغات أجنبية ، فكان يحسن إلى جانب لغته الأصلية التركية العربية والفارسية والأغريقية ويفهم الإيطالية ، وكان بجانب إلمامه بهذه اللغات واسع الاطلاع فى آدابها يتذوق الجميل منها .

نشأ مهتما بدراسة التاريخ مغرماً بقراءة سير العظماء والأبطال ، فقرأ بإمعان حياة القياصرة أوغسطس وقسطنطين الأكبر وتيودوسيوس الأكبر ، وأعجب بشخصية الاسكندر الأكبر المقدونى أيما إعجاب ،

فلقد لمح فيها صورة من نفسه ، رأى فيها قوة النفس وصحة العزم وسرعة التنفيذ بعد إحكام الخطة وعدم التردد . كان ذهنه كذهن الاسكندر من قبله مملوءاً بالمشاريع مكتظاً بالخطط ، وكان عقله خزانة لأسراره فهو يحتفظ بها ، يكتمها ولا يعلن بها إلى أحد إلا فى الوقت المناسب حينما يقدم على تنفيذها .

كان محمد الثانى يحب الفنون لا سيما الموسيقى والرسم ويتذوق الأدب ويحفظ الشعر الجميل ويقوله ، ويهتم بدراسة الفلك ، وكان يحسن استغلال دراساته فى تقويم نفسه وإصلاح عقله والتأثير على المحيطين به .

ولكن حياته كانت حب الحرب فاضطلع بفنونها أيما اضطلاع ، وما كان يعلم بأى اختراع حربى إلا ويكون السباق إلى معرفته واستكماله والاستفادة منه ، ومن ذلك اهتمامه الكبير بالمدفعية وبالبحرية .

كانت حياته بسيطة لا تعدو القراءة والتدرب على الحرب ثم الصيد ، كان عدواً للترف منصرفاً عن حياة إرضاء الشهوات ، كانت عاداته غير معقدة ، ومائدته بسيطة ، ولم يكن له ندماء ولا محظيات بالمعنى الذى يفهمه سلاطين ذلك العصر الماضى وملوكه ، فعاش وحيداً بعيداً عن الاختلاط المبتذل فى جو كله هدوء ، كله ثقافة وعلم ، أو جو صاخب هو جو الهيجاء والنزال والنضال والحرب .

عاش محمد الثانى فى جو ساد العالم فيه خشونة وقسوة ، فى وقت كله حماس دينى وتعصب فى آسيا وأوربا ، فلقد دام النضال بين المسيحية والإسلام مدة طويلة زادت فيها الأحقاد وهبطت إلى أعماق النفوس فغذت روح البغض وحب التشفى والانتقام . ولذا ظهر فى بعض تصرفات السلطان الفاتح بعض الشدة والعنف ، وإن كان ذلك بخلاف والده الذى كان دائماً رقيق الجانب مشهوراً بالعطف والرحمة وحب العفو . وربما لم تكن هذه الشدة وذلك العنف فى طبيعة السلطان محمد الثانى ، فهو رجل قد سمت نفسيته وانصقل ذوقه واتسع أفقه ، ولكن العصر كما قلنا كان عصراً قاسياً وغير رحيم .

فإذا كان قد ظهر أثناء فتوحات هذا السلطان بعض العنف ، فربما كان وليد ذلك العصر الذى تحمس فيه المسلمون للجهاد والتوسع والفتح ، وتحمس فيه المسيحيون لدينهم وناضلوا نضال المستميت للدفاع عن حرياتهم ، واشتد ذلك الصراع والنضال بين الفريقين إلى درجة تلاشى معها العطف والعفو بين الفريقين .

حبا الله ذلك السلطان المواهب الممتازة والمقدرات العظيمة ، فهو سياسى بعيد النظر يحسن انتهاز الفرص ، وكرجل من رجال الحرب هو من الطراز الأول لا يدانيه أحد فى عصره .

كان السلطان محمد الثانى يهتم اهتماماً خاصاً باختيار من يعاونونه فى الإدارة والحكم ، وهو لا ينظر فى ذلك إلى الهوى الشخصى وإنما ينظر إلى المصلحة قبل كل شيء ، وكان يرى بنفسه أن أوامره تنفذ بكل دقة .

ولم يكن ممتازاً فى الناحيتين الثقافية والعسكرية فحسب ، فكانت كفايته الادارية والقانونية عظيمة ، فلقد أنشأ دولة عظيمة ، وبنى ملكاً كبيراً ، وقضى على دولة كانت فى يوم من الأيام لا تقهر ، فلا بد إذن من وضع تنظيم جديد وإصدار قوانين جديدة تتناسب ودولته الجديدة ، فمحمد الثانى هو الذى وطد دعائم الملك العثمانى فى داخل إمبراطوريته الكبيرة ، فاكتسب للعثمانيين النصر الخارجى وقنَّن لهم القوانين ، وعمل على استقرار الحالة الداخلية .

لقد ادعى مؤرخو عصر الفاتح من الأجانب أنه لم يكن كبير التعلق بالدين ، وقالوا إن ذلك نتيجة طبيعية لثقافته الواسعة والظروف التى قامت فيها دولته ، ويدللون على ذلك بتسامحه مع الكنيسة الأغريقية . وهذه الدعوى باطلة من أساسها فالحوادث تظهره شديد التمسك بالدين ، عظيم الاكرام لأهله ، كريم الخلق ، شديد التواضع لله دائم الحمد له ، وإذا كان قد أظهر التسامح مع الكنيسة الاغريقية

فهذا لا ينقص من تدينه ولا يتعارض مع تعاليم الدين الاسلامى الحنيف . ومن المعروف عن السلطان الفاتح أنه كان ينظر إلى الأمور بعين السياسى القدير المتسامح لا المتعصب الضيق الأفق ، ومهما يكن من شيء فان أعمال الفاتح وفتوحاته ومجهوداته كانت كلها فى سبيل رفعة الاسلام والسمو بمركزه ، ووفق فى ذلك توفيقاً نادر المثال ، وكان أعظم أعماله القضاء على الدولة البيزنطية وفتح مدينة القسطنطينية .

تداعى الدولة البيزنطية

لقد كانت الامبراطورية البيزنطية التى عرفها العثمانيون واحتكوا بها جزءاً من الامبراطورية الرومانية الشرقية السابقة ، كانت دولة قد سيطر البنادقة والجنويون على حياتها الاقتصادية ، وكانت كثيراً ما تقع فريسة لعدوانهما وأطماعهما . وكثيراً ما وجدت نفسها حائرة بينهما إذا صادقت فريقاً اعتدى عليها الفريق الآخر .

عمرت الدولة البيزنطية أو الدولة الأغريقية نحو ألف عام قاست فى خلالها من المحن والأهوال ما لم تقاسه دولة أخرى ، وداهمتها خطوب لو أنها داهمت دولة غيرها لقضت عليها قضاءاً مبرماً ، ومرت فى أزمات داخلية وخارجية عظيمة ، وأدت للمسيحية ولأوربا المسيحية خدمات جليلة تسكل تحت عبئها أعظم الدول وأقواها .

ولكن الدول كالأفراد تماماً لها صباها ولها شبابها ولها كهولتها وهرمها ، ففى القرن الرابع عشر الميلادى أخذ الهرم والهزال والسقم يدب حقيقة فى جسمها ، فشلت قوتها ، ونالها الاضمحلال فأوشكت على الانهيار ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه نظم الأتراك العثمانيين تزداد كل يوم إحكاماً وقوة ، وتسعى للحياة والعظمة ثابتة متفوقة . . .

سيطر فى هذه الدولة نظام الملكية الامبراطورية ، وهى ملكية مستبدة مقدسة ليس لسلطتها حد ، فهى مستمدة من الله مباشرة كما كان يعتقد فى ذلك الوقت . فالامبراطور ملك وقسيس معاً فهو إذن فوق القانون ، وهو رأس الهيئة التنفيذية ، وفى يده تتركز السلطة التشريعية ، وهو يشرف على الإدارة ويحكم الكنيسة كما يحكم الدولة .

وتمتع الامبراطور البيزنطى فى ظل ملك ثابت الأوتاد بفخامة وعظمة لا مزيد عليهما ، ورأى من أيام المجد ما لم يدانه إلا أيام البؤس ، فكانت الثورات كثيراً ما تقوم عليه حتى من أفراد عائلته بل من أولاده وأخوته فتقضى على قوته وتنزع ملكه ، فمات عدد كبير من الأباطرة غدراً أو هلكوا فى ميادين القتال وهم يعملون على قمع ثورات هاجت عليهم .

فى الملكية المستبدة يعتمد كل شىء فى الدولة على ميول الحاكم وهواه وشخصيته إن كانت ضعيفة أو قوية ، خيرة أو شريرة ، صريحة أو ماكرة معوجة ، وعلى خبرته فى الحياة وفى الحكومة ، فى مثل هذه الملكية يصبح قصر الحاكم مقر الدولة الحقيقى ومركز كل شىء ، ومصدر كل سلطة ، وفيه توضع المشاريع والخطط ، فتنشأ الدسائس وتدور المؤامرات . ففى ذلك البلاط البيزنطى الممتلئ بذوى الأطماع وذوى

الأحقاد والحافل بالرقيق المجاوب من كل مكان وبالنساء والموظفين كثرت الدسائس ، وفكر كل شخص فى نفسه قبل كل شىء وتتابع سقوط الوزراء ونبغ ذوو الشخصيات القوية أو من يستطيعون التقرب والزلفى والتقلب مع الزمن .

والواقع أن تاريخ الامبراطورية البيزنطية مملوء بالثورات والفتن والانقلابات السياسية . وبالرغم من أن النساء حجزن وراء الأسوار والحيطان فقد لعبن دوراً مهماً فى حياة هذه الدولة المديدة الأجل ، ومن قرأ التاريخ البيزنطى ولم يذكر اسم تيودورا أو إيرين !؟

وتجمعت مزدحمة حول الامبراطور أرستقراطية قوية تحل كثيراً من الوظائف الهامة فى الدولة ، وتتمتع بجانب كبير من الجاه والثروة والنفوذ ، وتهتم بالمأكل الغذى المتنوع والملبس المترف ، وتركن إلى حياة الملذات والشهوات .

قامت إدارة الامبراطورية فى الأصل على أساس نظم حربية فالبيزنطيون يعتبرون أن قيمة الجيش للدولة كقيمة الرأس بالنسبة للجسم ، ولذا كان الاهتمام به دائماً عظيما ، وكلما كان الجيش قوياً ومنظماً طالت حياة الامبراطورية ونعمت بمركز قوى فى أوربا وآسيا ، واستطاعت أن ترد أعداءها على أعقابهم خاسرين .

وكانت الامبراطورية تجند فى مبدأ الأمر أهالى البلاد ، و بجانب هذا لجأت إلى استخدام الجنود المرتزقة لثقتها فيهم ، فلقد كانوا محترفين للحرب ولهم دراية بفنها ، ثم هم أقوى أجساماً وأصلب عوداً من الأهالى وأقدر على تحمل الصعاب والمكاره ، وكان الامبراطور عادة كريماً فى معاملتهم لا يضن عليهم بالمال ، بل ويمنحهم الأراضى الكثيرة وجعلها وراثية فى أبنائهم من بعدهم .

وتبعاً لذلك النظام كان الجيش خليطاً من شعوب مختلفة عديدة مكوناً من عناصر غريبة لا يجمع بينها سوى حب المال والثراء والمغامرة وفى كثير من الأحيان حب السلب والنهب والغنائم ، فكانت هذه العناصر متباينة من حيث الميول والجنس واللغة والدين ، ففيه الأوروبيون والأسيويون وفيه القوط والهون والصقالبة والترك والعرب والأسبان والايطاليون والألمان ورجال الشمال من روسيا واسكنديناوه .

لقد كان لهذه الجنود أحياء خاصة فى القسطنطينية تكاد تكون مستقلة وكان لا بد لهم من قيادة حازمة قوية تستطيع كبح جماحهم وإيقافهم عند حدهم ، وحين مس الدولة العجز فى هاتين الناحيتين قاست الدولة من هؤلاء المرتزقة الأمرين ، فكانوا أخطر الناس على

حياتها ونظمها من الأعداء الخارجيين ، إذ كانوا أدرى من غيرهم بمواطن الضعف فى الدولة .

أما من حيث القوة البحرية ، فلقد كانت الدولة البيزنطية ، بحكم موقعها الجغرافى وإرثها التاريخى دولة بحرية ممتازة . وإلى القرن الثامن كان أسطولها من القوة بحيث استطاعت الاشراف على البحار الشرقية حيناً من الدهر طويلا . وإلى الأسطول يرجع الفضل فى إنقاذ حياة الدولة مراراً . ثم أهمل الأسطول نسبياً فترة من الزمن ، أولا لأن الحرب مع الخلافة العباسية ، أكبر أعداء بيزنطة ، كانت حرباً برية قبل كل شىء . ثانياً لخشية الأباطرة ازدياد قوة رجال الأسطول إلى درجة يخاف منها على الامبراطورية نفسها . ومن هنا كانت الدولة البيزنطية عاجزة عن المحافظة على جزر الارخبيل اليونانى من غارات المسلمين حين سيطر هؤلاء على جزيرة كريت ثم على جزيرة صقلية .

وفى نهاية القرن التاسع الميلادى عاد للدولة رشدها فقررت إعادة تنظيم الأسطول ، وبهذا أصبحت أول قوة بحرية فى البحر الابيض المتوسط ، واستمر ذلك التفوق غير منازع إلى أوائل القرن الثانى عشر ثم عاد إلى الدولة الضعف فى هذه الناحية بصفة خاصة حين فتح الاتراك السلاجقة معظم آسيا الصغرى ، فحرمت بيزنطة من هذه المناطق البحرية

التى كانت تجلب منها أحسن بحارتها ، ولذا اعتمدت على بحريات الدول الأخرى مثل بيزا والبندقية وجنوه ، وأهملت تماماً الإنشاء البحرى ، بل واعتبرت الأسطول مجرد مضيعة للوقت والمال .

ولم تعد المملكية الامبراطورية فى العهد الأخير هيبتها ولا مقدرتها على الإدارة والحكم . ولم تكن الأمور بمستقرة للامبراطور البيزنطى فى داخل الدولة ، ولم تكن ظروفه الخارجية بأحسن حالا ، فلقد تعددت الثورات السياسية العنيفة ، وقام على العرش نزاع يكاد يكون مستمراً بين أفراد العائلة الامبراطورية ، واستعان كل مطالب بالعرش بالفرق والأحزاب المختلفة بل وبالعناصر الأجنبية من الجنسيات المتباينة المحيطة بالدولة ، واستخدم كل منهم الجنود المرتزقة واعتصم بأعداء الدولة ، وتدخلت الجمهوريات الايطالية لصالحها الخاص ، كما تدخل الكتلان والأمارات التركية المبعثرة فى الأناضول .

تدخلت كل هذه العناصر تنصر فريقاً على فريق وتقوم بالسلب والنهب إذا سنحت لها الفرص فتخربت أراضى الدولة مما فت فى عضد الامبراطورية وألحق بها الضعف الذى أنهك قواها ولم تجد منه برءا .

كذلك لم يكن استخدام الجنود المرتزقة فى آخر الأمر فى مصلحة الامبراطورية ، فهؤلاء جنود غرباء لا تربطهم بالوطن البيزنطى

ولا بأهالى الدولة وشائج القرابة والنسب ، ولم يدفعهم لخدمة الدولة سوى رغبة واحدة هى الكسب المادى ، ولذا فهم لا يرعون إلاً ولا ذماماً ، ولذا فهم مستعدون فى كل لحظة للثورة وللانضمام إلى أعداء الدولة إذا لم تستطع بيزنطة إجابة مطالبهم التى لم تكن تنتهى . أصبح هؤلاء الجنود خطراً و بيلاً على الدولة فاستولوا على مدنها وخربوا قراها . لقد نهب المرتزقة من الأتراك مرة سرادق الامبراطور نفسه حين فكر فى التخلص منهم .

ثم إن فقدان الدولة البيزنطية اهتمامها بالبحرية جعلها تحت رحمة البنادقة والجنويين الذين لم يكونوا مخلصين لغير مصالحهم المادية ، بل انتهزوا كل فرصة للنيل من هذه الدولة المنحلة وانتزاع الامتيازات منها والانتقاص من حقوقها ، فأشرفت الدولة على الإفلاس المادى ، ولو تمكنت الدولة من المحافظة على تفوقها البحرى لما استطاع الأتراك العبور بسهولة إلى الشواطىء الأوربية أو تثبيت أقدامهم فيها

* * *

ومن أهم العوامل التى زادت فى ضعف الدولة البيزنطية نمو دولتى الصرب والبلغار وتقلص ممتلكات الدولة فى البلقان على أيديهم .

ولم يستطع هؤلاء الصرب أو البلغار بعد أن قضوا على الملك

البيزنطي في البلقان أن يقفوا متحدين أمام الهجوم العثماني . وفي نفس الوقت الذي وضع فيه الأتراك العثمانيون أقدامهم في جاليبولي ، كان على الدولة البيزنطية التي حاقت بها النكبات من كل جانب أن تصد هجمات إخوانها في المسيحية الصرب والبلغار ثم إغارات التتار . لقد حاولت الدولة البيزنطية محاولة اليائس أن تضم صقالبة البلقان إلى جانبها لتكون جبهة متحدة متراصة لمقاومة العثمانيين وطردهم من الأقطار الأوربية التي احتلوها ، ولكن مساعيها ذهبت هباء منثوراً ، فما كانت رغبة صقالبة البلقان في دمار بيزنطة لتقل عن رغبة الأتراك العثمانيين .

ويضاف إلى انحلال النظم وضعف الحكومة سوء سياسة الدولة من الناحية الخارجية فكان أمامها فرص ثمينة لو انتهزتها وساعدها الحظ لاتقت شر الأتراك إلى حين . ولم تستفد الدولة من انقسام الأتراك على أنفسهم في مبدأ حياتهم بل تدخلت تنصر فريقاً على فريق ، ولم تتركهم يحاربون مواقعهم بأنفسهم ، لم تحاول بيزنطة الاتفاق مع التتار في الوقت الذي تداعت أمامهم قوات العثمانيين . بل من الغريب حقاً أن تتفق مع فريق من العثمانيين لتثبيت دعائم ملكه وتقوية سلطانه .

كذلك لم تعمل الدولة مخلصة على توثيق صلاتها بالغرب الأوربى بترددها فى الاعتراف بتفوق رومه ، فلقد كان فريق كبير من سكانها يفضل سيطرة السلطان العثمانى على سيطرة البابا . كان عزيزاً على بيزنطة أن تقبل راضية سيطرة رومه . لقد قبل الامبراطور قسطنطين اتحاد الكنيستين فى آخر الأمر ، واحتفل بذلك فى كنيسة سانت صوفيا ، ولكن بعد فوات الوقت ، وحين انتهى أجل الدولة فلم تستطع أن تستقدم ساعة أو تستأخر .

ثم توالت الظروف السيئة على الدولة فتضرعت للغرب الكاثوليكى وقبلت شروطه ، ولكن الغرب لم يقدم لها المساعدة الكافية ولا التأييد الخالص فى محنتها العظيمة . بل إن الجنويين تعهدوا للسلطان مراد الثانى بنقل ستين ألفاً من جنوده إلى الشاطئ الأوربى

وما كانت الفوضى فى الإدارة والحكم لتعمل على انتشار الأمن واستتباب النظام فى أجزاء الدولة الباقية ، بل لقد دعتها الحروب المستمرة إلى الإمعان فى فرض الضرائب الفادحة مما دعا السكان إلى التذمر وتفضيل الحكم العثمانى حيث يستطيعون أن يتمتعوا فى ظله بالهدوء والسكينة والعدالة .

ومما أنهك الدولة وامتص حيويتها كفاحها الطويل المستمر أمام

أعداء أشداء غلاظ كثيرين لا يعصون أطماعهم ما أمرتهم ، فمن قبائل جرمانية إلى جموع صقلية إلى خصوم من الآلان والأفار والهون والتتار والبلغاريين ، إلى غزوات العرب والصليبيين والبنادقة والجنويين إلى هجمات الأتراك التى لم تسكن تنقطع ، وكل هؤلاء كانوا لا يرومون إلا دمار الدولة والقضاء عليها والاستيلاء على عاصمتها إلى أن كلت نهائياً ، وساءت حالتها المالية وفقدت معظم بلادها وخسرت قومها ورجالها وسقطت فى آخر الأمر صريعة الظروف أمام الغزو العثمانى العنيف المنتصر .

ولكن إذا كانت الدولة البيزنطية ضعيفة مفككة ، فلقد ظلت عاصمتها مدينة قسطنطين ، تحتفظ بجانب كبير من رونقها وبهائها .

obeikandi.com

مدينة قسطنطين

عمرت مدينة القسطنطينية ألف عام بعد أن بناها الامبراطور الرومانى قسطنطين الأكبر بتوسيع بيزنطة المدينة الأغريقية القديمة، ولقد اختار قسطنطين عاصمته الجديدة فى مكان منيع يصعب الدنو منه ويسهل الدفاع عنه. وأصبحت رومه الجديدة — كما كان يطلق على القسطنطينية — حاضرة دولة عظيمة، ومركز حضارة سامية، ورمزاً لرقى باهر، ومصباحاً وهاجاً امتد نوره إلى الشرق الإسلامى والغرب المسيحى، فترك فيهما آثاراً جليلة باقية، وكانت مصدراً لا ينضب لإلهام ولوحى جديد فى الغرب كما كانت مصدراً للاعجاب والتقدير فى الشرق.

لقد كانت هذه الحاضرة ناضرة مضيئة فى وسط الظلام الحالك الذى كان يغمر العصور الوسطى فى معظم أجزاء أوربا ماعدا أسبانيا الإسلامية. كانت القسطنطينية مركز الذوق والفن والجمال والتفكير فى كل أنحاء أوربا المسيحية ولم تكن مجرد ناقلة للحضارة الأغريقية القديمة، فهى مدينة امتازت باتصالات مستمرة وثيقة بالشرق والغرب معاً، ففيها تقابلت الهلينية الأغريقية بالمسيحية الشرقية فكونت حضارة

بيزنطية ، تأثرت بالشرق الفارسي ثم الاسلامي وانتفعت بحضارته وتركت أثراً واضحاً في حياته .

كانت القسطنطينية عاصمة للدولة البيزنطية ، ورمز حضارتها ، ومركز ثقافتها ، وعنوان تمدينها ، وقلبها النابض ، وعقلها المفكر .

كانت القسطنطينية محط أنظار العالم الشرقي والغربي بأجمعه لمدة ألف عام ، هذه المدينة « المحروسة » الضخمة العظيمة الزاهرة ، باريس العصور الوسطى وموطن العلم والفن واللذة والقداسة . هذه المدينة بجمال موقعها حيث يتقابل الشرق والغرب ، البر والبحر ، بجوها المعتدل الصحي ، وبمينائها المحمية ، هذه المدينة العظيمة بميادينها العامة المتسعه وبواباتها ، وتماثيلها المبثوثة في كل مكان ، وبكنائسها الفخمة المتعددة وأسواقها التي لا تقف حركتها ، وملاعبها وحماماتها ، هذه المدينة الشهيرة بحصونها المنيعة ومعاقلها المشيدة وقفت أمام البرابرة من هون وأفار وبلغار وروس وصقالبة ، وحالت أمام آمال الغزاة والفاتحين من فرس وعرب وترك .

هذه المدينة كان يقصدها الناس من أقصى جهات أوربا ويتغنى بها الروسي على ضفاف أنهاره ، ويردد ذكرها الأوربي ، ويطمع في الاستحواذ عليها الشرق .

هذه المدينة الخالدة بنيت على تلال سبعة تشرف على شواطئ أوربا وآسيا ، وتنحدر بجمال وروعة إلى بحر مرمره ، وعلى انحدارات هذه التلال لمعت القصور الامبراطورية .

أمَّ هذه المدينة الناس من كل جانب ، وسكنتها أجناس مختلفة ، فوصل عدد سكانها فى أوج عظمتها المسيحية إلى المليون .

ففيها الأغريق سكان المدينة الأصليين ، وفيها الأجانب ، فمن أسيويين بلحاهم الممتدة اللامعة وشعورهم السوداء ، إلى بلغاريين برؤوسهم المحلوقة وسلاسلهم التى تمنطقوا بها ، إلى روسيين بملابسهم الفرائية الثمينة ، إلى اسكندناويين بوجوههم البيضاء وشعورهم الذهبية المتموجة ، إلى أرمينين وصقالبة ، ازدحم فيها الناس من كل جانب رغشيها التجار من كل صوب ، المسيحيون منهم والمسلمون فازدحم البنادقة إلى جانب الجنويين والأسبان والفرنسيين والمسلمين من بغداد وسوريا .

ويرى الناظر فيها الجنود المرتزقة بأشكالها المخيفة وصلابتها وخشونتها تسير فى الميادين والشوارع الممتدة ، من فرنسيين وصقالبة وجرمان وإيطاليين وإسبان ، فاختلطت فيها الأديان وتعددت اللغات واختلفت وتباينت المشاعر والاحساسات .

عاشت هذه الأجناس الغريبة فيها جنباً إلى جنب كجاليات أجنبية ، بعضها قوى عديد والبعض منزو قليل ، عاش البعض فى أحياء مستقلة ، وتمتعت بعض هذه الجاليات بامتيازات كبيرة فلم تخضع لقوانين البلاد الأصلية ولا لتقاليدها .

وكانت حياة الارستقراطية فى المدينة حياة الأبهة والترف فرفلت فى ملابس الحرير يحليها الذهب ، وتبخترت على جيادها الفخمة المنتقاة واشتركت فى الدسائس وقامت بالثورات .

كانت القسطنطينية فى أوربا مدينة الدنيا والدين ، فإلى جانب فخامة البلاط الامبراطورى وقصور النبلاء الجميلة وملاهى الهبودروم والملاعب المكتظة باللاعبين والنظارة ، كانت عظمة الاحتفالات الدينية وأبهتها ، فلله كانت كنيسة سانت صوفيا ، وللدنيا وللهو كانت الملاعب ، وحول هذه جميعها دارت الحياة فى القسطنطينية .

فى هذه المدينة الهائلة تمثلت حياة الدين بأجلى مظاهرها وأروعها وأرهبها ، وقامت الدراسات والمجادلات الدينية بنشاط واهتمام وحماس منقطع النظير ، فمن الامبراطور إلى النبلاء إلى رجال الدين إلى التجار أحب الناس جميعاً المناقشات الدينية وشغفوا بها . وكانت هذه المناقشات تنقلب فى كثير من الاحيان إلى تنازع شديد وقتال تسيل فيه الدماء

فلم تخل هذه المناقشات والمجادلات الدينيــة من المطامع والاحقاد الشخصية والرغبات الدنيوية والمصالح الخاصة .

وظهرت فى المدينة شتى الاعتقادات من أسماها إلى أدناها ، فكان فيها احترام الاولياء والاعتقاد فى قدرتهم الربانية ومعارفهم الغيبية ، ووثق الكثير من الناس فى تنبؤاتهم ، وبنوا على توجيهها حياتهم ، وانتشرت الخرافات والاساطير وصدقها الجم الغفير من أهالى هذه المدينة الزاخرة .

فى هذه المدينة العظيمة كان الاهتمام كبيراً بتشييد الكنائس والاديرة والوقف عليها ، فكانت هذه منتشرة فى أنحاء المدينة رمزاً للاحساس الدينى العميق المتأصل فى نفوس السكان ، وكان رجال الدين والرهبان موضع الاحترام الزائد والاكبار ، ولهم تأثير كبير على عقول الناس وسلطة واسعة وقوة حقيقية ، فلقد اعتقد الناس فيهم قوة إلهية ومواهب ربانيــة . وكان الاباطرة أنفسهم يظهرون التملق بالدين ويوقرون رجاله توقيراً كبيراً ويقدسون أماكنه ، ففى سانت صوفيا التى شادها الامبراطور جستنيان كان يتوج الامبراطور ، وفيها يحتفل بالاعياد ، وهى فوق صفتها الدينية كانت مركزاً كبيراً من مراكز الحياة العامة .

كانت هذه الكنيسة من عجائب القسطنطينية ، فقبتها العالية وصفها المعاصرون وكأنها « معلقة من السماء بسلسلة ذهبية » . وكان جمال زخارفها ورونقها وأعمدتها ورخامها يبهر النظر . وأما مصابيحها الوهاجة وبخارها العبق ، وأما الحفلات الدينية التى كانت هذه الكنيسة عامرة بها والآيات والأناشيد التى ترتل فيها والصلوات التى تقام فكانت تبعث فى النفس الروعة وتشعرها بالجلال و تملؤها بالخضوع .

و بجانب ذلك الجلال والبهاء قامت القصور الفخمة العامرة بالملذات والترف وانتشر الفساد الخلقى والرشوة ، وقامت أماكن كان يباع فيها الشرف والعرض وكل فضيلة إنسانية فى سبيل متاع وقتى زائل .

واهتم الأغنياء باشباع البطون واقتناء الأيقونات وأدوات الزينة وبالشهوات ، وقامت أماكن اللهو والملاعب يمر فيها القواد المنتصرون يسير خلفهم أسرى الحرب ، هذا فى وقت عز القسطنطينية . وجرى فى الملاعب سباق العربات ومنازلة الرجال ومصارعة الحيوانات وأعمال الأكروبات ومهازل المضحكين . وفى هذه الملاعب عبر الناس عن أفكارهم ، عن رضاهم واستيائهم . وفيها كانت توضع بذور الثورة وتقوم الثورات التى قد تهز عروش الأباطرة البيزنطيين .

وقامت بيوت الفساد والدعارة إلى جانب الكنائس والأديرة ،

وكما فاقت هذه المدينة المدن الأخرى فى العظمة والفضيلة فاقتها فى الفوضى والرذائل . فمن الميادين العظيمة تعرجت الأزقة المظلمة الموحلة وامتلأت بالكلاب واللصوص وقطاع الطرق ، وكثرت فيها حوادث السرقة والاغتيال والغدر والقتل .

كانت القسطنطينية مدينة ثقافية ممتازة ، فمركزها فى شرق أوربا كمركز رومه فى غربيها ، وهى فى ثقافتها متأثرة بالقديم إلى حد كبير ، محتفظة بالتراث الأغريقى . فمكاتبها الكبيرة مملوءة بالكتب الأغريقية مزدحمة بالقارئين والدارسين ، وكان الأدب اليونانى محور الثقافة والتعليم ، بجانبه دراسة الكتاب المقدس وقصص القديسين والشهداء والحساب والموسيقى والأجرومية والبلاغة . لقد كانت جامعة القسطنطينية مركز الثقافة اليونانية موئل الدراسات الكلاسيكية . ومن هذه المدينة العظيمة تعلمت إيطاليا فلسفة أفلاطون ، ومنها أخذ العرب القانون وجانباً كبيراً من الثقافة اليونانية ، وإذا كان لهذه المدينة تراث يخلد ذكرها فى العالم فهو الأدب الأغريقى والقانون الرومانى ، فأباطرة القسطنطينية هم الذين جمعوا القوانين الرومانية ، إرث رومه العظيم ، وقننوها ونشروها .

وتمتع سكان هذه المدينة العظيمة بامتيازات لا يشاركهم فيها أحد

فكانوا معفين من الضرائب توزع عليهم الحكومة مجاناً ما يلزمهم من الخبز والنبيذ والزيت ، وذلك حين كانت ثروة الامبراطورية عظيمة ورزقها متوفراً وجانبها مهاباً .

والقسطنطينية مدينة صناعية وتجارية عظيمة بحكم موقعها الجغرافى المنقطع النظير فى ذلك الوقت . فهى تقع فى موضع ممتاز للاتصال بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ، وبين البحر الأسود والبحر الأبيض ، فهى من مراكز العالم المهمة فى ذلك الوقت للتجارة ، تأتى إليه المتاجر عن طريق البحر الأبيض والبحر الأحمر والبحر الأسود ، من فارس والهند والشرق الأقصى وأواسط آسيا ، من اسكنديناوه وشرقى أوربا وغربيها ، متاجر العالم المعروف فى ذلك الوقت تجمعت فى القسطنطينية وآوت إليها السفن من كل فج فكانت ميناؤها فى القرن الذهبى تعج بحركة دائمة وسهلت الحكومة البيزنطية كما سهلت الحكومة العثمانية من بعدها وسائل العيش والاتجار وتبادل المنافع ، واشتهرت أسواقها بمواد الترف والزينة والمصوغات والأيقونات والعطور والمنسوجات الحريرية والكتانية الجميلة ذات الألوان الساطعة اللامعة ، وإلى جانب التجار وجد الصيارفة يزاولون مهنتهم بنجاح كبير .

لقد تفوقت القسطنطينية كما رأينا على غيرها من المدن فى مظاهر

obeikandi.com

الحياة ، وكان موقعها ومناعتها وغناها وثروتها ومبانيها ومباهجها ومركزها في العالم المسيحى من الأمور التى دعت الشرقيين من العرب والأتراك إلى محاولة الاستيلاء عليها وتحويلها من حاضرة للمسيحية إلى مركز مهم للإسلام .

obeikandl.com

قصة فتح القسطنطينية

كان فتح القسطنطينية أمنية من أكبر أمانى المسلمين منذ نشأة دولتهم . فلقد حاولوا الاستيلاء عليها مراراً قبل عهد السلطان الفاتح . ففى دمشق كان معاوية بن أبى سفيان يمنى النفس بالاستيلاء على مدينة القياصرة ، ويرى فى ذلك تثبيتاً للخلافة الأموية ومجداً لا يماثله مجد ، فأرسل قوة عظيمة إلى البوسفور لم تبال بما قاسته من المرض وقلة الزاد ، وأمدها بابنه يزيد .

كان القتال حول هذه المدينة دائماً عنيفاً ، وكانت خسارة المسلمين فيه دائماً كبيرة ، وظل معاوية يرسل بحملات سنوية استولت فعلا على إحدى الجزر القريبة من القسطنطينية لمدة سبع سنوات ثم تركتها حين تولى يزيد الخلافة . أنقذ المدينة تفوق البيزنطيين البحرى ثم النار الأغريقية التى عرفت فى ذلك الوقت ، وفى هذا الحصار وتحت أسوار المدينة العظيمة استشهد أبو أيوب الأنصارى الصحابى المشهور ، فأصبح لمدينة قسطنطين مركز خاص فى نفوس المسلمين .

ولكن حلم الأمويين بالاستيلاء على هذه المدينة لم ينته بموت معاوية ، فما أن استقر لهم الملك حتى عادوا يعدون العدة لتحقيقه ،

obeikandi.com

فكانت المحاولة الثانية فى عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وكان الوليد قبل مماته قد أعد تجهيزات عظيمة برية وبحرية لتحقيق هذا الغرض المنشود . هاجم مسلمة بن عبد الملك المدينة براً وبحراً فى عهد الأمبراطور ليو الثالث . وكان ذلك الرجل ممتازاً فى الحرب والسياسة فاستطاع أن يضم البلغار إلى جانبه ، كما استطاع أن يهزم المسلمين براً وبحراً ، ولعبت النار الأغريقية دورها بنجاح فى هذه المرة أيضاً .

كانت محاولة مسلمة آخر محاولة جدية قام بها العرب لفتح هذه المدينة ، فلقد اضطرب أمر بنى أمية ، وجاءت الدولة العباسية فشغلت عن مدينة القياصرة بسكنى ديار الأكاسرة ، ولم تعد تهتم بأمر الأسطول وظلت مدينة القياصرة الشرقيين منيعة باقية إلى أن جاء الأتراك العثمانيون .

فكان أول من حاصرها منهم السلطان بايزيد الأول ولكنه اضطر لرفع الحصار عنها حينما بلغه غزو التتار لبلاده ، ثم حاصرها السلطان مراد الثانى ، ولكن ضعف الأسطول العثمانى وعدم وجود المدفعية القوية كانا عاملين على تركها ، ويكفى أن ننظر إلى الاستعدادات العظيمة التى قام بها السلطان محمد الثانى وإلى المشقة التى وجدها فى الفتح حتى نعرف إلى أى حد كانت القسطنطينية منيعة قوية

ولم يكن العرب والترك وحدهم هم الذين تاقت نفوسهم لفتح هذه المدينة فلقد حاصرها الأفار والبلغار وفشلوا فى الاستيلاء عليها ، ثم فى أوائل القرن الثالث عشر غزاها اللاتين والصليبيون وفتحوها عنوة ، ثم عادت الدولة البيزنطية للظهور فى القسطنطينية مرة ثانية بعد أن ضعف اللاتين وذهبت ريحهم .

* * *

الممهدات للحصار

ثم قضى الله أن يستولى الأتراك العثمانيون على هذه المدينة الخالدة فى منتصف القرن الخامس عشر .

ففى ٣ فبراير سنة ١٤٥٢ مات السلطان مراد الثانى عدو المسيحية الأكبر الذى كان اسمه يبعث الرعب فى الدولة البيزنطية وفى أوربا ، مات فى أدرنه عاصمة دولته الأوربية بعد حياة حافلة بالانتصارات الرائعة على المجريين ومن حالفهم من سكان شبه جزيرة البلقان .

وكان ابنه محمد لا يزال مقيما فى مدينة مغنسيا فى آسيا الصغرى قد أبعد عن أمور الحكم والسلطنة بعد ما تولاها مرتين ، وكان لا يزال حديث السن لم يمض بعد الحادية والعشرين من عمره ، وكان لا يزال

قريب عهد بالزواج من بنت الأمير التركى نورجاتير ، وصلته أخبار وفاة والده فلم يعلنها خوفاً من ثورة الانكشارية ، وأسرع بمغادرة هذه المدينة إلى جاليبولى فوصلها بسرعة كبيرة ، وفى غاليبولى أعلن نبأ وفاة أبيه ، ثم دخل مدينة أدرنه حيث أعلن سلطاناً للأتراك العثمانيين باسم محمد الثانى ، وفى أدرنه استبقى وزراء أبيه خليلا واسحق بالرغم من حقده الشخصى عليهما ، فكثيراً ما كان هذان الرجلان يخشيان بأسه ويحذرانه ويثنيان أباه عن عزمه فى التخلى عن السلطنة له ، ولكن محمداً الثانى أراد الاستعانة بهما فى أمور الحكم لتجاربهما الواسعة ولدرايتهما بشئون الدولة ولتعلق الجنود بهما .

وأما معاصره قسطنطين فقد ولد قبل محمد الثانى بنحو ربع قرن من الزمان ليرث أضخم المسئوليات وأخطارها ، ليرث أمبراطورية قد يقى منها الاسم والرمز ، وغادرها العز والمنعة ، امبراطورية لم يبق منها إلا مدينة ، ولكنها مدينة تملك سحراً وبهاء وجمالا وجاذبية لم تكن لأى مدينة أخرى فى أوروبا فى أواخر العصور الوسطى .

كانت السنة الأولى التى تولى فيها السلطان محمد الثانى لحظة رهيبة فى حياة الأمبراطورية البيزنطية ، هذه الدولة التى انحلت قواها أمام هجمات الأتراك المتوالية العنيفة ، لقد فقدت هذه الدوله كل ممتلكاتها

تقريباً ، واستطاع الأتراك رغم أنفها ورغم أنف الأمم البلقانية ، نقل عاصمتهم إلى أدرنة التى اتخذوها مقراً لحكمهم ، ومعسكراً عاماً لجنودهم لشن حروبهم وغزواتهم فى كل جهات البلقان ، وتمكنوا من الاشراف على المضايق ، على الدردنيل وعلى البوسفور ، وفرضوا الجزية على الدولة البيزنطية البائسة .

لقد كان مجىء السلطان محمد الثانى مثيراً للرعب والفزع فى القسطنطينية ، فلقد كان أهلها يعلمون حق العلم أنه أقسم ليستولين على هذه المدينة وأن ذلك سيكون أول مهمة يكرس حياته فى سبيل القيام بها . لقد كان الاستيلاء على هذه المدينة الخالدة حلم أحلامه منذ صغره . وكانت عنده القوة العظيمة وأمامه الظروف المواتية للنجاح فى تنفيذ مشروعه الخطر .

ما كانت العلاقات العثمانية البيزنطية حينما تولى محمد الثانى علاقات إخلاص وصداقة ، فكان الأتراك العثمانيون موقنين بأن البيزنطيين سينقضون مواثيقهم إذا أتت أول فرصة ، فكثيراً ما اتفقت بيزنطة مع أعداء العثمانيين إن لم يكن علانية فسراً ، وأباطرة بيزنطة ينتهزون كل الظروف للإيقاع بين العثمانيين و إثارة الانقسام بينهم ، فهم دائماً يعضدون الأمراء الثائرين المطالبين بالعرش العثمانى . ومحمد الثانى يذكر

جيداً موقف بيزنطة حين أغار التتار . وقسطنطين لم يحسن التصرف حين تولى السلطان الجديد فلم يعمل على كسب ثقته بل لقد ظن فيه الضعف ، واعتقد فيه التردد والخوف ، فتقدم إليه بمطالب أثارت غضبه وحفيظته ، فلقد أيقن أن قسطنطين يريد الانتقاص من كرامته وأنه يهدد ملكه ، لقد طلب قسطنطين زيادة المرتب الذى يدفعه السلطان للدولة البيزنطية نظير تكفلها بأحد أبناء سليمان بن بايزيد الأول واسمه أرخان ، ولمّح الامبراطور البيزنطى بأنه إذا لم يجب طلبه سيطلق سراح ذلك الأمير ليطالب بالعرش العثمانى ويثير المشاكل للسلطان الجديد .

إذن فالمسألة مسألة حياة أو موت فى نظر السلطان محمد الثانى ، فكيف ينسى لقسطنطين ذلك الموقف ، وخاصة وأنه كان فى ذلك الوقت مشغولا بإخماد ثورة فى آسيا الصغرى ، ولكنه رد بأدب ، وحذر البيزنطيين الضعاف عواقب سياستهم وسوء تصرفاتهم وبين لهم أن الفرق شاسع بين خلق السلطان الجديد وخلق أبيه مراد ، فمراد يمتاز بالهدوء ، ولكن السلطان الجديد لا يحتمل الإهانة ولا يصبر على ضيم .

وكان السلطان محمد الثانى قد وطد العزم على فتح العاصمة الأغريقية ولذا رأى توطيد دعائم ملكه قبل القيام بذلك المشروع الخطير .

رأى محمد أن البيزنطيين ليس لهم عهد ولا يمين ، فلقد كان يذكر لهم المواقف السيئة فى عهد أبيه ؛ ألم تؤيد القسطنطينية فملا مطالباً بالعرش العثمانى ؟ ألم تمده بالسفن وتسهل له العبور ؟ ألم تعمل بيزنطة على إثارة القلاقل ضده فى آسيا الصغرى ؟ إذن ففتح القسطنطينية والقضاء على هذه الدولة أمر لا بد منه إذا أراد العثمانيون ثبات ملكهم وحرصوا على مستقبلهم .

وكانت حال المدينة العامة سيئة للغاية ، فهى وضواحيها كل ما اشتملت عليه الامبراطورية الأغريقية ، وليس لديها من الجنود المدربين إلا العدد القليل ، وأما من السفن فبضع لا تغنى فتيلا فى وقت المحن ولا ترد جليلا من الخطوب.

وكثرت البعثات السياسية التى أرسلتها القسطنطينية إلى أوربا طالبة الغوث والنجدة ، كما يقول مؤلف تاريخ الصليبيين فى العصور الوسطى المتأخرة (١) ، لكن كانت هناك مصاعب عظيمة فى سبيل نجاح هذه البعثات ، وأهم هذه المصاعب اختلاف الكنيستين الشرقية والغربية ، الأرثوذكسية والكاثوليكية ، والنزاع بين بيزنطه ورومه .

ولقد بذلت مساع دبلوماسية هائلة فى سبيل التوفيق بين الشرق

---

(١) الدكتور عزيز سوريال .

البيزنطي الأرثوذكسي والغرب الروماني الكاثوليكي . ولكن البابوات لم يستطيعوا قبول ذلك التوفيق إلا إذا اعترفت رسمياً الامبراطورية البيزنطية ورجال الدين البيزنطيون بتوحيد الكنيستين على حساب بيزنطة طبعاً . وعلى أساس ذلك الشرط وحده تستطيع البابوية أن تعمل على إثارة العالم المسيحي الغربي لمساعدة بيزنطة في كربها ضد المسلمين .

وربما لم يكن لدى الامبراطور البيزنطي قسطنطين مانع من قبول هذا الشرط المهين ، ولكنه كان يعلم حق العلم أن الأكثرية من سكان مدينة القسطنطينية ومعظم قساوستها معارضون لهذه الفكرة عاقدوا العزم على رفضها ومحاربتها .

ولم تكن هذه المحاولة أول محاولة من نوعها ، ففي المدة الواقعة بين سنتي ١٠٥٤ و ١٤٥٣ كانت هناك ثلاثون محاولة لاتحاد الكنيستين وكان هذا الاتحاد غاية ما يصبو إليه أباطرة الغرب والبابوات — فلقد كان هذا التوحيد في نظرهم أنجع علاج للأمراض العضال التي تعاني منها المسيحية ولضعفها المتزايد . فإذا تم ذلك التوحيد بتنازل الشرق عن كنيسته وقبول سيطرة رومه ، إذن تعود للمسيحية قوتها الأولى ووحدتها ، وإذن تستطيع الوقوف أمام قوات الإسلام التي يزداد خطرها يوماً بعد يوم .

قامت محاولات ، ولكن قامت فى سبيلها صعوبات ، فهناك مواضع للخلاف كبير على الكنيسة الشرقية قبولها ، واختلطت المصالح السياسية بالمصالح الدينية إلى حد كبير ، بحيث لم يكن من السهل الفصل بين المصلحتين أو تغليب إحداهما على الأخرى .

ولم يستطع أحد من الفريقين التخفيف من تعصبه ، فعامل كل واحد الآخر كملحد وخارج على الدين المسيحى ، ووصل الأمر إلى درجة أن الغرب الكاثوليكى لم يكن يهدد بحروبه الصليبية الإسلام وحده ، بل كان يهدد الأرثوذكسية ذاتها والقسطنطينية بحرب صليبية لا تبقى ولا تذر . ولم يكتف الغرب بحملته الصليبية الرابعة على هذه المدينة ، بل كان يفكر متأثراً بالبابوية فى إعداد حملة صليبية أخرى تقضى هذه المرة القضاء المبرم على الأرثوذكسية .

ولكن تهديد الأتراك المستمر للقسطنطينية جعل الأباطرة البيزنطيين ينزلون مرغمين عن كبريائهم ، ويطلبون النجدة والعون أياً كان الثمن ، فأعلنوا رغبتهم فى توحيد الكنيستين وقبول سيطرة رومه ، وحاولوا تبرير تحالفهم فى بعض الأوقات مع الأتراك بأنهم مستعدون للقيام عليهم ومحاربتهم متى نفذ الغرب وعده وفى الوقت المناسب الموعود .

وإزاء ذلك جاهد البابوات فى سبيل إثارة العالم المسيحى على المسلمين والاسراع بنجدة بيزنطة ، ولكن هذه المجهودات كانت فاشلة فى كثير من الأحيان حتى مع الجمهوريات الإيطالية ، البندقية وجنوة ، وحتى مع فرسان رودس . ذهبت معظم هذه المجهودات هباء منثورا .

وكان أباطرة القسطنطينية يسعون جادين إلى الاتحاد مع الغرب كلما هددهم الخطر التركى ، فإذا خف ذلك الخطر أهملوا الغرب كلية ، فلقد كانوا يرون فى ذلك الاتحاد سلاحاً ضد الأتراك ، فكانوا معنيين قبل كل شئ بالمساعدة المالية والحربية التى يستطيع الغرب أن يقدمها لهم . ولكن أهل المدينة أنفسهم وقساوستها رفضوا اتحاد الكنيستين ، وكانوا مستعدين للتضحية باستقلالهم السياسى فى سبيل استقلالهم الدينى . فلقد كانت ذكرياتهم عن سيطرة اللاتين ذكريات ساخطة ممعنة فى الإيلام ، ففرض الوحدة بالقوة فى سنة ١٢٠٤ أثار حقد الأغريق الهائل ، ورغبتهم فى الانتقام .

وعلى أى حال لم تنجح دعاية البابوية إلا فى تكوين حملة صليبية واحدة كانت نهايتها المحزنة فى نيكوبوليس ، ولم يعد من السهل بعد ذلك تكوين حملات صليبية أخرى لنجدة القسطنطينية .

ولكن فى هذه المرة كان الخطر عظيما على القسطنطينية إلى درجة

تهدد حياتها ، وكان لزاماً على البابوية أن تقدم بعض المساعدة ، لا سيما وأن قسطنطين كان مستعداً للاعتراف رسمياً بتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية توحيداً نهائياً . فوعد البابا بإرسال أسطول وأرسل فعلا الكردينال ايزيدور مندوباً عنه ليقبل خضوع الكنيسة الشرقية الرسمى

* * *

بدأ الكردينال ايزيدور رحلته إلى القسطنطينية الخائفة فى أواخر سنة ١٤٥٢ ، ووصلها فى ديسمبر من هذه السنة ، وأقيم حفل عظيم فى كنيسة سانت صوفيا حضره الامبراطور البيزنطى والبطريرك جريجورى يساعده ثلاثمائة قسيس للاحتفال بتوحيد الكنيستين ووحدة المسيحية .

وبجانب ذلك الفريق الراضى عن التوحيد أو المتظاهر بالرضا ، وجدت معارضة قوية غاضبة ثائرة على رأسها جناديوس ، هى فى ريب مما يدعو إليه الفريق الأول ، وهى تنذر بالويل والثبور إذا تم ذلك الاتحاد . وكثرت النبؤات عن العذاب الذى سيلحق بيزنطة إذا تمّ اتباع الملة الغربية ، وهى تقول بسقوط الامبراطورية وبغضب الله إذا سيطرت رومه على مدينة قسطنطين ، ونادى أتباع جناديوس بالموت والدمار لمن يعتنق الكاثوليكية ، وسحقاً لمن يقبل الاتحاد معها ، ودعوا

العذراء مبتهلين أن تنجي المدينة العظيمة من الخطر التركي الداهم ، كما أنجتها من قبل من الأكاسرة الفرس ، والخلفاء العرب .

ما كان جم غفير من أهل القسطنطينية يعتقد مخلصاً في الملة الجديدة ، وهي الكثلكة الغربية ، بل هم منها في شك مريب ، وحتى الامبراطور قسطنطين نفسه الذي تربى تربية إنسانية بمعنى الكلمة ، وتثقف ثقافة حقيقية كان عنده نفس الشعور ، إلا أنه قبل ذلك الاتحاد لأسباب سياسية قبل كل شيء على أمل مساعدة الغرب الكاثوليكي في محنته الوشيكة الوقوع .

وأما السلطان محمد الثاني خصمه العنيد فلقد استعد للحرب بكل ما لديه من قوة ومن عتاد الخيل وأدوات الحصار ، ولكن الكثيرين من أهل القسطنطينية رأوا أن امبراطورهم قسطنطين قد ارتكب شيئاً إدًّا تخر له الجبال هدًّا بقبوله اتحاد الكنيستين ، ورأوا في ذلك محنة المحن ومهزلة الدهر ، وخطوة غير عملية ، وخطة خاسرة . بل لقد قال أحدهم والخطر محدق بمدينتهم أنه يفضل أن يرى في مدينة قسطنطين الأكبر عمامة السلطان عن أن يرى قبعة البابا . وكان يشارك هذا الرأي الكثيرون من أهل المدينة الذين كانوا يمقتون اللاتين مقتاً شديداً .

وفي ذلك الوقت العصيب كان الشغل الشاغل للسلطان محمد الثاني

هو الاستعداد لفتح أم المدن وملكتها ، فهو يفكر ليل نهار فى فتح هذه المدينة العظيمة ، كما يروى هامر[1] عن أحد خصوم السلطان المعاصرين . فهو يقضى النهار وزلفاً من الليل قلقاً مضطرباً مفكراً فى كيفية الاستيلاء عليها ، وهو لا تكاد تفارقه خرائط المدينة التى جعل دراستها عمله اليومى ، وهو يدرس مواضع أسوارها ومواطن الضعف فيها ، وهو يضع الخطط تلو الخطط للتغلب على قوة دفاعها ، وهو يدرس التفاصيل الدقيقة بصبر واهتمام لا مزيد عليهما .

لقد عرض عليه الامبراطور البيزنطى السلام ، ولكن محمداً ما كان يعتقد فى سلام البيزنطيين ، ولا يعطى أهمية كبيرة لكلمة زعماء المسيحية ، فهم فى نظره لا يربطهم مع المسلمين عهد ولا ذمام ، ألم يصرح أحد الكرادلة فى عهد أبيه السلطان مراد الثانى بأن المسيحيين فى حل من نقض معاهداتهم مع المسلمين ، وقال إن نقض المعاهدات مع المسلمين ليس مخالفاً للدين المسيحى ؟! فكيف يستطيع السلطان أن يصدق إذن كلمتهم أو أن يرتبط بوعد من وعودهم ؟

ثم مسألة ثانية ، لقد وقفت الدولة البيزنطية موقفاً غير ودى فى محنة الدولة العثمانية حين غزا التتار بقيادة تيمورلنك آسيا الصغرى ، أليس

---

(١) فى مؤلفه ، تاريخ الدولة العثمانية .

وجود الدولة البيزنطية حجر عثرة فى سبيل إشراف العثمانيين التام على البلقان وقاعدة ضد العثمانيين فى وسط بلادهم ؟ وجودها وحده عامل على تشجيع الغرب على محاولة طرد العثمانيين من أوربا .

لقد عرف محمد الثانى أن مهمته حقيقة خطيرة وخطرة ، ولكنها واجبة النفاذ ، فعمل على تمهيد الطريق لتنفيذ مهمة حياته وأكبر آماله .

فعمل أولا على استقرار الأمور فى أراضى الدولة العثمانية . فأقر من عاونوا أباه فى الحكم كما ذكرنا ، وتخلص ممن ظن أنهم سيوجدون له مشاكل عاجلة أو آجلة أو سيكونون مصدر ثورات عليه فى المستقبل ، فهو يؤمن بضرورة استقرار الملك قبل كل شئ مهما بذل فى سبيل ذلك من تضحيات ومهما أراق فى سبيل ذلك من دماء . فماذا يهم فى نظره دماء جملة أشخاص فى سبيل القيام بمهمته العظيمة ، وهى مهمة ترفع من شأنه ، وتخلد ذكره ، وترقى بمركز الإسلام .

ولم يغفل السلطان محمد الثانى الوسائل السياسية ، فالأمور الدولية تحل بوسائل السلم كما تحل بوسائل الحرب ، وكل منهما له وقته المناسب وظروفه الخاصة ، ولا بد من تأمين حدوده وإسكات أعدائه . ولذا أخضع الثورات فى ولاية قرمان ، وعمل على استصلاح النفوس فى آسيا الصغرى ، هذا فى ممتلكاته الأسيوية . أما فى أوربا فلقد عقد صلحاً

(٤)

مع أكبر عدو وأخطر منافس للعثمانيين فى البلقان ، وهو هونيادى المجرى ، صلحاً يضمن به السلام على حدوده لمدة ثلاث سنوات . وهو وإن لم يكن يثق كثيراً فى مثل هذه المعاهدات إلا أنه يعرف أن موقعة ورنه ثم موقعة قوصوه فى عهد أبيه الغازى قد أعطتا لهونيادى المجرى درساً قاسياً لن ينساه ، فلقد أضعفتا قوة المجر إلى درجة لا تجعلها تفكر جدياً فى الحنث بالعهد أو النكث بالاتفاق أو الانتقام .

وبيّن السلطان محمد الثانى فى نفس الوقت أنه لا ينوى الغدر بالامبراطور البيزنطى ، وهدأ من روع صقالبة البلقان الذين كانوا قد ذاقوا من قبل سيوف العثمانيين .

وإذا كان السلطان محمد يستخدم الوسائل الدبلوماسية لخدمة أغراضه ، فما كان الامبراطور البيزنطى بغفلها ، فقسطنطين شخصية عظيمة ، جم النشاط ، عظيم الصبر ، بطل من أبطال العصر ، ولكن مولده لم يكن سعيداً وطالعه لم يكن ميمونا ، وصفقته بإرث بيزنطة ومصائبهـا وآلامها كانت صفقة خاسرة . ضحى قسطنطين أولا بالأرثوذكسية حتى يقنع الغرب بمساعدته فى أزمته ، وحاول التزوج إلى الغرب حتى يوثق أواصره به ، ولم يكن هذا الزواج أول زواج أو ثانيه لذلك الامبراطور الشجاع التعيس الحظ .

وفى أثناء ذلك كان السلطان محمد الثانى قد ثبت قواعد ملكه فى آسيا وفى أوربا ، وكان عليه أن ينفذ وصية والده ، وأن يحقق رسالته بفتح المدينة الخالدة . فحوّل مدينة أدرنه عاصمة العثمانيين فى أوربا إلى مصنع هائل للأسلحة ، وجعلها مركزاً لجيوشه المتجمعة من كل أنحاء دولته ، و بنى دار السعادة الجديدة لسبك المدافع الكبار وصنع الأسلحة واهتم بجعل عاصمته مركزاً لتموين جنوده . ثم كان عليه أن ينشئ مركزاً جديداً من مراكز قوته فى أوربا ، حتى يستطيع الاشراف التام على البوسفور من ناحية الشاطئ الأوربى .

وكان السلطان بايزيد الأول الغازى قد شيد على ساحل البوسفور الأسيوى حصناً منيعاً هو أناضولى حصار لكى يشرف على مدخل البحر الأسود ، فالحصن الذى شيده السلطان محمد الثانى ، وهو روميليا حصار ، بنى لكى يواجه ذلك المعقل بحيث يستطيع الأتراك من هذين المعقلين أن يشرفوا إشرافاً تاماً على البوسفور ، وعلى مدخل البحر الأسود . و بذا يصيرون مسيطرين سيطرة تامة على الطرق الشمالية إلى القسطنطينية .

وهذا المعقل الجديد سيكون مركزاً مهماً من مراكز العمليات الحربية فى أوربا ، ومحطة كبيرة للمعدات والذخائر ، وشحنه السلطان

محمد بالآلات النارية والمدافع والمرامى الرعدية والمكاحل (وهى مدافع يقول عنها صاحب صبح الأعشى أنه يرمى عنها بالنفط . . . و بعضها يرمى عنه بأسهم عظام تكاد تخرق الحجر . و بعضها يرمى عنه ببندق من حديد من زنة عشرة أرطال بالمصرى إلى ما يزيد على مائة رطل) . و بهذا المعقل يستطيع السلطان بسلام تام وأمان نقل رجاله ونقل المؤن الحربية والعتاد الحربى بسهولة فى ذلك الحيز من الماء الذى يقع بين شاطئى البوسفور والذى يبلغ نصف الميل .

وكانت الدولة البيزنطية عاجزة إلى حد أنها كانت ترى تنفيذ مثل ذلك المشروع الضخم ، ولكنها ما كانت مستطيعة منع السلطان من إنجازه .

لم يصبح السلطان محمد الثانى بذلك الحصن الحصين مسيطراً على البوسفور فحسب ، بل يصبح مسيطراً على بحر مرمره أيضاً ، ولذا كان يؤمل أن يكون فى مقدوره غلق البوسفور ، والإشراف على الطرق البحرية المؤدية إلى المدينة من ناحية الجنوب ومن ناحية الشمال ، وعزلها نهائياً بجيوشه البرية ، فلا تستطيع استقبال أى مدد أو أية معونة من أى ناحية . ومن الغريب أن ضعف الدولة من الناحية البرية والبحرية وصل إلى حد أن حاول الامبراطور البيزنطى التقرب إلى السلطان زلفى

بإمداد عماله بالمواد الغذائية حتى يسهل إتمام المشروع بسرعة ! !

واستغرق إتمام ذلك المشروع الكبير بضع شهور . فذعر أهل القسطنطينية وأحسوا بالخطر الداهم يهدد حياتهم ومصيرهم ، وشعروا بأن نهاية الدولة آزفة لا محالة . وتكرر احتجاج الامبراطور على ذلك العمل وأشار إلى أن ذلك العمل ليس ودياً بأى حال إزاء دولة تربطها بالدولة العثمانية رابطة الجيرة ، ولكن ذلك الاحتجاج لم يكن بذى جدوى إذ لم يستمع إليه السلطان ، بل قابله بالتهديد والوعيد ، فهو يعلم أن الجيش الامبراطورى البيزنطى لا يستطيع رد العثمانيين فليست له قوة خارج أسوار المدينة العظيمة ، ولقد ذكر السلطان قسطنطين كما يروى هامر بأن كل الأراضى الواقعة خارج أسوار القسطنطينية ملك له يتصرف فيها كيفما يشاء ، فهو له الحق فى كلا جانبى البوسفور الشرقى لأنه يقطنه العثمانيون والجانب الأوربى لأن البيزنطيين لا يحسنون الدفاع عنه ، وأنه مضطر اضطراراً إلى بناء ذلك الحصن ، و بيّن له كيف حاولت الدولة البيزنطية أن تمنع العثمانيين من العبور حين قامت الحرب بينهم و بين المجر فى عهد أبيه السلطان مراد الثانى .

ولم يستطع قسطنطين دفعاً للخطر المجاور له ، ولم يستطع منع العمال من السير فى عملهم بهمة ونشاط ، ولم يستطع منع الجنود العثمانيين من

اكتساح كل القرى والضياع المجاورة للقسطنطينية ومن هدم المبانى والمساكن لاتمام بناء حصنهم على ضفة البوسفور .

ولقد أخذ السلطان محمد الثانى على عاتقه الإشراف على انجاز ذلك الحصن ، وأعلن لرعايا سلطنته فى آسيا وأوربا أن يمدوه بالصناع والعمال للإسراع فى إتمام مشروعه الكبير . فسار العمل بدقة وسرعة غريبتين ، ولم يترك السلطان مجالا لأى شىء شأنه فى كل مشاريعه الحربية .

اختار السلطان المكان بنفسه ، وأظهر باشاواته وكبار موظفيه ولاءهم وإخلاصهم بالاشتراك مع العمال فى نقل الأحجار والملاط والأدوات اللازمة للبناء .

وتقول بعض الروايات أن خمسة عشر ألف عامل قاموا بانجاز ذلك المشروع وتروى الأخرى بأنهم كانوا ستة آلاف فقط . وربما كان الرأى الثانى هو الأصح . ولقد كلف السلطان محمد قواده بأن يشرف كل منهم على جزء خصصه له ، وأشرف بنفسه هو على الجميع .

وبذا لم تعد تصل إلى القسطنطينية الغلال التى كانت تأتيها عن طريق البحر الأسود . ولقد تمَّ إنجاز المشروع فى أغسطس سنة ١٤٥٢ ولم يستطع الامبراطور البيزنطى غير إمداد العمال الأتراك بالأغذية

حتى يسترضى قلب السلطان الغاضب الثائر . ثم حاول بعد ذلك أن يلجأ إلى مهاجمة هؤلاء العمال وطردهم وتدمير ما أنشأوه ، ولكن قوات السلطان كانت تقضى على هذه المحاولات بالقوة . ولا تزال آثار التحصينات العثمانية باقية إلى الوقت الحاضر كمظهر من مظاهر النشاط الهائل الذى عرفه التاريخ عن ذلك السلطان القاهر .

وكانت النتيجة الحتمية لبناء ذلك الحصن ولمقاومة البيزنطيين أن أعلن السلطان الحرب رسمياً على الامبراطور البيزنطى على أساس اعتداء البيزنطى على جنوده وعماله .

لقد عمل إنشاء ذلك الحصن على إدخال الذعر والخوف فى قلوب البيزنطيين سكان المدينة و بقية رعايا الدولة . فلقد ترك السلطان فى ذلك الحصن حامية قوية من جنود مختارين بقيادة فيروز أغا ، وأمره بإيقاف جميع السفن التى تمر ببوغاز البوسفور ، وأن يفرض عليها أتاوة ، هى ضريبة المرور ، وجهز الحصن بالمدافع القوية التى تجعل إرادته وأوامره محترمة .

وأخذت حامية ذلك الحصن تعتدى بانتظام على الجهات المجاورة ، وفهم الامبراطور البيزنطى أخيراً أن محاولته المحافظة على السلام بأى ثمن لن تفيده شيئاً ، فلا شىء يرضى العثمانيين غير القضاء على ملكه

وغير الاستيلاء على مدينته ، ولذا عقد العزم على الموت فى عاصمته هو و رعاياه فأغلق أبواب القسطنطينية و بعث إلى السلطان محمد الثانى بما عزم عليه ، ففى ٦ أبريل كتب قسطنطين رسالة للسلطان العثمانى يقول فيها :

« لما كان من الجلى أنك تريد الحرب أكثر من السلام ، ولما كنتُ غير مستطيع أن أقنعك بإخلاصى واستعدادى لأن أكون تابعاً لك ، لذا ، فالأمر لله ، وسأحول وجهى إلى الله ، فإذا كانت إرادته تقضى بأن تصبح هذه المدينة مدينتك ، فلا مردَّ لقضاء الله وقدره ، وأما إذا ألهمك الرغبة فى السلام ، فسأكون سعيداً ما بقيت ، ومع ذلك فإنى أعفيك من كل تعهداتك واتفاقاتك معى ، وسأغلق أبواب هذه المدينة وأدافع عن شعبي إلى آخر قطرة من دمى ... »

هذه كانت روح مدينة القسطنطينية أو الفريق الأكبر فيها حين قررت عدم الخضوع ، وصممت على الدفاع إلى النهاية . أقفل الامبراطور أبواب المدينة وقبض على كل الأتراك الموجودين فى داخلها ، فأرسل إليه السلطان محمد الثانى بإعلان الحرب ، ويروى خصوم السلطان المسيحيون المعاصرون له أن السلطان أمر بقطع رؤوس مبعوثى الامبراطور البيزنطى ، وهذه الرواية تحتاج إلى دليل ، وظهر السلطان

obeikandi.com

بعد ذلك بجيش يبلغ خمسين ألفاً بجوار الأسوار ، ثم رجع إلى أدرنه فلم يقم الأغريق بأية حركة معادية . كان غرض السلطان من هذه الزيارة القصيرة التى دامت ثلاثة أيام الاستطلاع ، وبحث موقع القسطنطينية ، ودراسة قوة الأسوار والأبراج .

رجع السلطان إلى أدرنه حيث أتم استعداداته ، وعمل على منع أخوى الامبراطور فى شبه الجزيرة الأغريقية من مده بالمساعدة وذلك بأن أرسل جيشاً قوياً إلى الموره بقيادة طورخان فاكتسح بلاد الموره من أقصاها إلى أقصاها ، وتمكن من وقف أى إمدادات مقصدها المدينة المحاصرة .

وكان لبناء ذلك الحصن على ضفة البسفور أثر كبير فى حركة المرور بالبوسفور ، فلما حاولت بعض السفن الآتية من البحر الأسود ومقصدها القسطنطينية ، لما حاولت هذه السفن المحملة بمواد التموين المرور ولم تأبه لأوامر الحصون العثمانية دمر بعضها وقتل الكثير من رجالها . وبذلك ثبط العثمانيون من عزم أصحاب السفن التجارية ، وشلوا حركة النقل .

ولقد جمع السلطان محمد الثانى فى قصره فى أدرنه قواد جيشه ، ورسم لهم خطته ، وذكرهم بمجد أسلافه وبانتصاراتهم الباهرة ، وبيّن لهم أن قوة الامبراطورية البيزنطية قد ضعفت واضمحلت ، وأنه لم يبق أمامهم

سوى عقبة واحدة فى سبيل فناء هذه الامبراطورية ، فيجب الاستيلاء على مدينة القسطنطينية بأى ثمن ، وأن الظروف السياسية والحربية مواتية ، ولدى الأتراك القوة الكافية لتحطيم أى مقاومة ، وأنه يجب الإسراع بإنجاز هذه المهمة قبل أن تستعد أوربا للقيام بنجدة هذه المدينة ، وقبل أن تصلها الإمدادات والمؤن التى قد تطيل أمد الحصار ولذا لا بد من بدأ هذه الحرب والسير فيها إلى أن ينزل الله نصره .

ونفذ السلطان محمد الثانى مشروعه بقوة وعزم منقطعى النظير ، كان قادراً بطلا ذا جراءة ، وشكيما منظما حديدى الإرادة ، وتم استيلاؤه على كل الحصون التى لا زالت باقية فى تراقيا حتى يحمى مؤخرة جيشه ، وكذلك احتل كل المدن الواقعة على البحر الأسود وبحر مرمره ، واكتسحت جنوده ضواحى العاصمة ، فبلغ الذعر فيها منتهاه ، وعمّ القلق ، وتناقل الناس الأقاصيص والخرافات والأساطير ، وكثرت التنبؤات عن مصير المدينة المنكودة الحظ ، وتزايدت النذر باندثار أعظم مدينة مسيحية ، وأحس المسيحيون بهزات أرضية عنيفة ، وفى السماء كثر الرعد والبرق ، وهطلت الأمطار المتدفقة ، وخيل للقوم أن نجوماً جديدة فى السماء قد ظهرت ، لقد عمت الهستريا فى الواقع عقول سكان المدينة المحاصرة ، فكثرت أقاويلهم ، وتبلبلت ألسنتهم

وهلعت نفوسهم ، و بلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنون .

ولكنه فى نفس ذلك الوقت العصيب كان الامبراطور الشجاع قسطنطين وزمرة من الشجعان من أهل المدينة قد أخذوا فى تحصين المدينة ، و إعداد وسائل الدفاع بكل ما استطاعوا من قوة حسبما سمحت لهم الظروف ، وكان أول واجب هو إصلاح الأسوار المتهدمة التى أبلاها الدهر ، وصمدت أمام إغارات الغازين المتكررة . واستعملت لذلك أحجار القبور وكثير من الآثار القديمة والمنازل ، وجمعت الذخائر والأسلحة بكل سرعة ، وكذا الغلال والزيت ، وجمعت الأموال التى يمكن الحصول عليها ، و بعثت البعثات الصارخة إلى أوربا ، تطلب القوت والنجدة وتبكى حظ المسيحية فى كل مكان فيه للمسيحية سلطان وقوة ، واستمر ذلك طوال ذلك الشتاء الكئيب المكفهر ، وكان معظم سكان المدينة قد فقد الأمل من وصول أى نجدة ، و إن كان المسيحيون فى أوربا قد ظلت لديهم بعض الآمال فى حدوث معجزة تنقذ حصن المسيحية الشرقى .

وثابر السلطان على تجهيز استعداداته للهجوم وتنظيم وسائله ، فجمع جيشاً عظيما ربما بلغ ربع المليون أو أكثر كما يرى هامر ، وأنشأ أسطولا ضخما ، وشحن حصونه بالأسلحة والذخيرة للقضاء على هذه

المدينة البائسة . ومن شهر فبراير سنة ١٤٥٣ بدأ بإرسال مدافعه وأخذ في الاسراع بإنشاء السفن . وقامت بعض السفن الأغريقية بالهجوم على الشواطئ التركية الإسلامية ، فأخذت من قدرت عليه ، وقتلت من قتلت ، وخربت ما خربت ، وباعت في الأسواق من باعت ، فلما علم السلطان بذلك استشاط غضباً ، وأقسم لينتقمن من سكان المدينة شر انتقام .

وكان الامبراطور قد علم بهذه الاستعدادات العظيمة ، كما يقال ، عن طريق خليل باشا وزير السلطان ، الذي يرى بعض المعاصرين أنه لم يكن مخلصاً للسلطان بدليل اتصاله بقسطنطين وإخباره بما يعتزم عليه السلطان محمد الثاني من إيقاد نار الحرب والاستيلاء على المدينة . ولكنا لا ندري إذا كان خليل باشا قد كشف للامبراطور البيزنطي عن أسرار مولاه أو عن خططه الحربية حتى تستطيع اتهامه بالخيانة . وعلى أي حال لقد ظل السلطان يثق به ثقة كبيرة طوال وقت الحصار وإن لم يأخذ برأيه في فك الحصار عن المدينة . ولكن حين تجمعت له الأدلة عن اتصاله بالأعداء وذلك بعد سقوط القسطنطينية أمر بضرب عنقه .

ولقد استمرت استعدادات كل من الأتراك والبيزنطيين طول

وقت الشتاء ، وجاءت إلى القسطنطينية بعض الإمدادات الضعيفة مثل سفينتين بندقيتين استطاعتا بصعوبة أن تنفذا من البوسفور وتلقيا مراسيهما فى القرن الذهبى .

وجاء الكردينال ايزيدور مبعوث البابا بمائتى مقاتل لنجدة المدينة ولإتمام توحيد الكنيستين الشرقية والغربية ، وتبعته ثمان سفن من كريت تحمل النبيذ للمحاصرين ، وكثرت اجتماعات المجالس واللجان فى القسطنطينية وزاد طلب النجدات ، وبعثت البعثات إلى المجر تطلب العون من بطلها هو ينادى بألا يترك إخوانه البيزنطيين يسقطون صرعى فى أيدى الأتراك العثمانيين . ولكن هذه الاستغاثات لم تجد استجابة ولم تلق غير التأييد اللفظى

ثم جاء جون جوستينيانى الجنوى على سفينة محملة بالمؤن والذخائر ، ومعها أخرى وخمسمائة من رجاله فكانت جملة من معه سبعمائة . ولقد استقبله الامبراطور استقبالا عظيما ، وعينه قائداً لقوات البرية .

وسيظهر ذلك المغامر الكونديتيرى الحقيقى مهارة وشجاعة ممتازين ، كما سيبدى نشاطاً بالغاً الحد ، ولقد أعجب السلطان بشجاعته كما يقول هامر وحاول الاتصال به . لقد قدم متطوعاً للدفاع عن حصن المسيحية الشرق ، وكان هو ورجاله نخبة المدافعين عن المدينة الخالدة وخيرتهم .

وأخذ جون جوستينيانى على عاتقه من وقت تعيينه أمر تنظيم الدفاع عن القسطنطينية . فنظم وضع مدافعه الصغيرة على الأسوار فى نقط معينة ، وقسم المدافعين عن القسطنطينية حسب شعوبهم وأجناسهم وخصص لكل واجباته ، وقام بمهمة ليست بالبسيطة وهى تدريب هؤلاء الرهبان والمدنيين الذين يجهلون فن الحرب كلية ، وليس لديهم من وسائلها إلا الحماس لها والرغبة فى النضال ضد المسلمين لإنقاذ مدينتهم الجميلة ، والتضحية بأرواحهم فداءاً لها .

وعمقت الخنادق الموجودة فى الناحية الشرقية ، وكان الامبراطور يشجع هؤلاء المجندين ، ويقوى من ثقتهم بأنفسهم ويبين لهم أن العذراء لن تترك مدينة المسيحية الخالدة لتسقط فى أيدى المسلمين الطامعين .

وخصص الامبراطور لجون جستنيانى الجنوى وأتباعه مهمة الدفاع عن النقط الخطرة والأبواب المهمة . وأجمعت كلمة الجميع أغريق وبنادقة وجنويين وكتلان كاثوليك وأرثوذكس على ضرورة الدفاع عن مدينتهم إلى آخر رمق من حياتهم ، وإنقاذ أكبر حصن فى أوربا من أن يقع فى أيدى الأسيويين الغازين .

وقرر الامبراطور وضع سلسلة لإغلاق القرن الذهبى أمام السفن الفاتحة ، تبدأ من طرف المدينة الشمالى الشرقى ، وتنتهى عند ضاحية

غلطه ، وهى مدينة جنوية مستقلة ، وترك لهؤلاء الجنويين أمر حمايتها عند طرفها الشمالى . وهذه السلسلة هى التى وقفت أمام الأسطول أو الأرماد التركى وعملت على حماية السفن التى تجمعت وراءها ، لقد لعبت هذه السلسلة دوراً هاماً فى الدفاع عن المدينة المحصورة .

وفى نهاية شهر مارس كانت استعدادات السلطان محمد الثانى لفتح القسطنطينية قد تمت ، وكان قد دمر كل القرى المجاورة لها ، فلم تعد المدينة الكبيرة تستطيع الاتصال بالبلاد المجاورة لها ، أو تستفيد منها وكان عليها أن تعتمد الاعتماد كله على المؤن والدخائر الموجودة بداخلها ، وأن تنتظر ما قد يستطيع أن يصل إليها من إمدادات من الخارج ، وكان وصول الامدادات صعباً ، إن لم يكن مستحيلا كما سنرى .

تمت إستعدادات السلطان محمد الثانى للحصار ، ففى أدرنه عاصمة الأوربية ومعسكر الأتراك العظيم تجمعت الجنود العثمانية الأسيوية والأوربية الفرسان والمشاة ، النظامية وغير النظامية ، و بين هذه الجنود الغير النظامية والباشبوزق عدد كبير من المسيحيين الذين لا همَّ لهم غير القتال والقتل والغنيمة والسلب والنهب ، وهم لا يخضعون فى سلوكهم لقانون ولا نظام ولا عرف ولا دين ولا إنسانية وإنما يتبعون غرائزهم البهيمية قبل كل شىء والأوامر التى يصدرها قائدهم إليهم .

كان حماس الجيش العثمانى للقتال عظيما ، وكان عدده كبيراً ، ويعتقد رجاله أنهم يؤدون مهمة سامية فى الحياة ، ويقومون بتنفيذ مشروع مقدس ، ويعملون على رضا الرب ، ويبتغون المثوبة من الله ، وينتظرون النصر ، وينتقمون المسلمين . كان بين هذا الجيش عدد كبير من الملات (القضاة) والمشايخ والعلماء والدراويش يقوون روح الجهاد والحماس فى الجنود ، وكان السلطان قد استصحبهم على عمد لا لاستغلالهم فقط فى سبيل إنهاض القوى المعنوية للجنود ، ولكن تبركا بهم ، وتيمناً بصحبتهم واحتراماً لهم وإكبارا .

كانت الحركة دائبة والنشاط عظيما فى كل من مدينتى أدرنه والقسطنطينية ، لم تكن تغمض لمحمد الثانى أو اقسطنطين عين ،

لقد كانت استعدادات الأتراك الهائلة التى لم تخف على البيزنطيين عاملا على نشر الذعر والخوف فى المدينة المسيحية ، وخاصة ما تناقلته الأخبار عن قوة مدفعية السلطان العثمانى ومدى تدميرها العنيف .

كان الأتراك أول من استعمل الأسلحة الحديثة ، وأحسن استخدامها ولم يكن أحد من السلاطين يهتم بالمدفعية مثلما كان يهتم بها السلطان محمد الثانى . لقد علم سكان مدينة القسطنطينية أن الأتراك يحاولون صنع مدفع عظيم لم يسبق له مثيل ، وأن السلطان يستخدم لذلك صانعاً

مجريا إسمه أربان ، وكان ذلك الرجل قد عرض خدماته قبلا على الأمبراطور البيزنطى ، فلم يمنحه المكافأة التى كان ينتظرها ، فأسرع إلى الأتراك يعرض عليهم اختراعه . ما كان البيزنطيون يستطيعون الإستفادة من اختراع ذلك الرجل ، فحالة أسوار مدينتهم ما كانت تسمح بوضع مدفع كبير عليها . على أى حال استقبل محمد الثانى ذلك الرجل استقبالا حسنا ، وأغدق عليه الأموال والخيرات وكل مايصبو إليه من شرف ، وعرف السلطان كيف يستغله أكبر استغلال ، وسهل له كل الوسائل لاتمام مخترعه . واستخدم السلطان المدفعية فى ذلك الوقت على نطاق لم تعرفه من قبل .

* * *

حصار القسطنطينية (١)

وفى أوائل إبريل ، فى اليوم الخامس منه ، ظهر الجيش العثمانى أمام أسوار مدينة القسطنطينية ، بين دعاء العلماء والأشراف من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم . ظهر الجيش العثمانى منظما تنظيما

(١) يخالف المؤلف شلومبرجر صاحب كتاب فتح القسطنطينية فى فكرته عن قسوة السلطان وعدم إرتباطه بالوعود .
ولقد أخطأ شلومبرجر فى أسماء القواد العثمانيين الذين اشتركوا فى الحرب .